رواية

سِتّة

أيمن العتوم

2022م

تأليف أيمن العتوم

تصميم عبدالعزيز عصمت

zezodedo@hotmail.com

الناشر

الإبداع الفكري

شركة الإبداع الفكري
للنشر والتوزيع - الكويت

الرقم المعياري الدولي « ردمك »
978 - 9921 - 714 - 61 - 6

رقم الإيداع : 2022 / 0873

للشراء عبر الانترنت www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 965+

فاكس: 22675365 965+

العنوان: ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

الطبعة الأولى - يونيو 2022

جميع الحقوق محفوظة للناشر (شركة الإبداع الفكري) (يمنع النسخ أو التصوير أو النقل أو النشر في موقع الشبكة الالكترونية أو الاقتباس من هذا الكتاب أو أي استخدام آخر لمادته إلا بإذن خطي من الناشر لعدم التعرض للملاحقة القانونية)

ebdaafekry info@ebdaafekry.com ebdaafekry.com

تمت الطباعة في المطبعة الألمانية للطباعة والتغليف

إهداء

(٠)

كيفَ نكونُ نَحنُ؟!

إنّها سنوات الصّبر والكِتمان، لن أقول سنوات الخَفاء والحرمان، فالحرمان كان لأولئك الّذين لا يَعلَمون بأمرنا، ولا يُدرِكون سِرّنا، ولا يفعلون فِعلنا... إنّها السّنوات الخُضر اليانِعات، فالعِجافُ اليابِسات لم تكنْ إلاّ لأولئك الّذين لم يخطرْ ببالهم أنْ ينظروا من النّافذة يومًا، أو أنْ يسألوا سؤالاً عادِيًّا عمّا يختبِئ خلفَ هذه الأبواب الصّامتة والباردة.

كيفَ يكون السّرّ لذيذًا إلى هذا الحَدّ؟! بل كيفَ يكون التّعبُ حُلوًا إلى هذا المَدى...؟! وكيفَ نكون نحن؟ نحن الّذين لم تكنْ أمّهاتنا ترى وجوهنا في الشّهر أو الشّهرين مرّةً واحدةً!! نحنُ نبتُ الرّبا، ونحن ذَوْبُ الغَمام، ونحنُ سِرّ الله، ونحنُ أولئك البُسطاء الّذين جمَعَهمٌ حلمٌ واحدٌ، واحدٌ فقط؛ كان حلمًا بسيطًا جدًّا، ولكنّه كان عنيدًا.

قال له عمّار: «ارفع السّبّابة... نحنُ موحّدون... من أجل هذا الواحد الّذي في الأعالي، الّذي يرانا في كلّ حين، نفعل كلّ هذا... نحن لا نضربُ بقوّتنا بل بقوّة الله، سهمُنا طائشٌ وسَهم الحقّ صائب». وهَرّ الكلب.

بقي وحده بعد أنْ خرجَ آخِرُ الحالِمين... حدّق النّظر فيها، سَمِعَ صيحاتِ استِغاثةٍ مرعوبة، رأى جُثَثًا تتطاير، أجسادًا بلا أعناق، وأُخرى تجري بلا رؤوس، ثُمّ تخرّ على الأرض مُضرّجةً بالدّماء... ابتسم، لا يُمكن أنْ يكون رأى كلّ ذلك في هذه المادّة الصّغيرة الّتي انتهيَا من تشكيلها للتّوّ

على سبيل التّجربة، لكنّه الخَيال الّذي صَنَعَتْه أُمنياته في أنْ يتحوّل هذا الخيال إلى حقيقة... ازدادتْ ابتِسامتُه وهو يرى الرّؤوس الّتي تدحرجتْ تفغر أفواهها، وتنظر بعيونٍ مفتوحةٍ سَكَنَها الفَزَع... كان يُقرفِصُ وهو يرى ذلك كلّه، أرادَ أنْ يتربّع على الأرض، أنْ يرتاح فَرِحًا بما أنجز... لكنّه وقف على قدمَيه، ومَضى إلى ستارة النّافذة، أزاحها ليسمح للشّمس أنْ تُجفّف المادّة الطّريّة، لكنّه تذكّر ما قاله له رفيقُه، فأسرع ليُعيد السّتارة إلى ما كانت عليه... وقبلَ أنْ يفعل دَوّى صوتُ انفِجارٍ حقيقيّ هذه المرّة، لم يُمهِله الوقتُ لكي يسمعه، فقد جعله يطير من أرض الغرفة إلى سقفِها كومةً من لحمٍ يحترق...!!

لم ينبح الكلب، كان يعرفُ أنّ صاحبه أَمَرَه ألاّ يفعل وهم في هذه الغرفة، حتّى لا ينُبّه مَنْ في المُحيط إلى موقعهم، كانتْ مَهمّته تنحصرُ في أنْ يمشي في الشّارع الّذي أمام الشّقّة، مِئَتَي متر عن اليمين المُمتدّ ومثلها عن اليسار، وإذا رأى حركةً مريبةً أو أحدًا - ليسَ مِمّن يعرفهم من خلال رائحتهم يقترب من المكان - فعليه أنْ يُهرَعَ إلى صاحبه ويُنبّهه على وجودِ غريبٍ فيأخذوا احتياطاتهم. لكنْ... هذه المرّة حينَ دوّى هذا الصّوت المرعب، ركضَ بقوّة وبسرعةٍ إلى صاحبِه، عبرَ الأدخنة والأتربة والحديد والزّجاج المتكسّر والبقايا الّتي خلّفها الانفِجار، وتخلّص منها إلى صاحبه، وأطلقَ صوتًا حزينًا مكبوتًا خرج من أعماقه، اقتربَ منه، وأراد أنْ يقبض بفَكَّيه على كمّ صاحبه ليسحبه إلى الخارج، لكنّ جسده كان متفسّخًا، فارتأى أنْ يخرج إلى الشّارع وينبح على أحد العابرين لكي يُنقِذَ صديقَه... لكنّه تذكّر أنّه لا يستطيع أنْ يستعينَ بأحدٍ، فأصابتْه الحرقة، غير أنّه لم يكدْ يخرج إلى الشّارع حتّى رأى (عمّارًا) وقد عادَ بعدَ أنْ سَمِعَ صوتَ الانفِجار.

كان ذلك في الشُّقّة رقم (١١)، الشُّقّة الّتي شَهِدَتْ كلّ هذا المجد، وتحوّلتْ إلى رمزٍ بطوليّ، لم يكنْ أحدٌ يعرفُ عنها شيئًا، كان تنام بين حاكورةٍ من الأشجار العالية المُنتشرة على الأطراف أعلى من السّور، والنّوافذ الغامضة، ولم يَرْتَبْ فيها أحدٌ من الجيران يومًا... لكنّ هذا الانفِجار الّذي حدثَ في هذه السّاعة من ظهيرة اليوم جعل البِناية كلّها ترتجّ، تتأرجح، وتكادُ تسقطُ من علیائِها خارّة على تراب الحاكورة جبلاً من رُكامٍ ورماد... سُمِعت هذه الأصوات على بُعدِ أكثر من (٥٠٠) مترٍ من المكان، كان جسدُه في اللّحظة الّتي طار فيها ليلتَصِق بسقفِ الغرفة لثوانٍ قبل أنْ يبدأ رحلةَ سقوطه مرّة أخرى إلى الأرض يشهدُ على أبوابٍ تنخلع، ونوافذ تتكسّر، وجدرانٍ تنقضّ... ثُمّ سقط، سقطَ جُثّة، جُثّة يعلوها الغُبار والحجارة، والرّماد، وبقايا من دُخانٍ خلّفهُ احتراقٌ مَهُول!

(١)

الثّائرون لا يَمُوتُون... والمُقاتِلون لا يَرْتاحُون!

في المُستشفى، لم يعرفْه أحدٌ، حتّى أُمّه. وَحْدَه رفيقُه القديم - الّذي غادره في اللّحظات الأخيرة - عرفه من عينَيه المُسبَلَتَين اللّتَين تظهران من خلفِ الشّاشِ الأبيض. كان جسده كامِلاً - فيما عدا هاتين العينَين الحالِتَين - مُغطّى بالشّاش الأبيض، ورِجلاه المُجبّرتان داخل الجِبْسِ ترتفعان على حاملةٍ كأنّما تَهُمّان بالطَّيَران من جديد... إنها غيبوبةٌ طويلة في بِئر احتراقِه العميق، كان يُدرِكَ أنّ ألَمها لا يُساوي شيئًا أمام ألم الغِياب، الغِياب عن الفِكرة، الفِكرة الّتي تُقرّبه من أنْ يرى حُلُمه في طَهارة وطنه غير مَحدوشةٍ لا يُدنّسها أيُّ لئيمٍ خبيث.

غرفته في المُستشفَى تحمل الرّقم (١١)، ذات الرّقم الّذي حملتْهُ الشّقّة الّتي نقلتْه من هناك إلى هنا، كأنَّ قَدَرَه المكتوب يريدُ له أنْ يواصِل الطّريق، مهما كان طويلاً وشاقًّا، ليس جديدًا عليه يقينُه هذا: نحنُ لا نموت، الثّائرون لا يموتون، الّذين يحلمون بالحرّيّة لا يفنَون، والّذين يرتبطون بالأقدار الإلهيّة مُحالٌ عليهم أنْ ينتهوا!!

مرّتْ ثلاثةُ أشهر، لم يكنْ قد استفاقَ من غيبوبته إلى اليوم، أُمّه كانتْ تجلسُ عندَ قدَمَيه تبكي، تتمسّح بهما، ونشيجُها يرتفعُ في هواء الغرفة البَكْماء الّتي تُشارِكُها هذا الحُزنَ على ما آلَ إليه. كانتْ تأتي إلى سريره كلّ يومٍ تفعل الشّيء ذاته، تسيلُ دُمُوعُها على الجِبْسِ فيكادُ يخضرّ، وتنظر إلى الطّعام المركونِ عندَ رأسِه مُتحسّرةً على أنّه لن يكونَ قادِرًا على أنْ يأكل منه لُقمةً واحدة، ومع ذلك ظلّتْ تصحو مُبكّرًا، تُعدّ له منذُ الصّباح الطّعام، وتذهبُ به إلى المستشفَى، لكنّ الطّعام كان يبرُدُ في كلّ مرّة ويرجِعُ معها يبكي لِبُكائِها.

في الشّهر الخامس استفاق من غيبوبته، نظَرَ إلى السّقف فرأى نفسَه يطيرُ المرّةَ الأولى، وحينَ كان يَهوِي في خيالِه ظَنّ أنّه من المروءة ألاّ يسقط، فهَمّ بالقِيام من سريره، لكنّ كلّ شيءٍ عاقَه عن الحركة، فأعاد رأسَه إلى السّرير وركنَ إلى الخَدَر الّذي في أطرافه. هذه المرّة بكتْ أمّه من الفرحة، لقد نظَر في وجهها ونظرتْ في وجهه، خرّتْ على جبينه تُقبّله، كانت آثار الحروق على وجهه تخفتُ مثلَ شمسٍ غارِبة... ومع قُبُلاتِ أمّه بدأ يتعافَى.

أوّل كلمةٍ نطقَ بها: «هل تمّتِ العمليّة؟» لم تعرفْ أمّه ما تقول، بيدَ أنّ صوتَه الّذي أعادَ روحَها الهارِبة إلى جسدها، وقلبَها المثقوب إلى نبضِه جعلها تردّ بدموع مُنهمِرة. ثُمّ أجال بصره في أنحاء الغرفة البيضاء الغريبة، وبالكاد خرجَ منه السّؤال الآخَرُ الموجوع: «أين رَيّان؟». أرادتْ أمّه أنْ تُجيبَه، لكنّ الكلب قفز إلى سريره، وراح يضمّه بكلّ ما في الكون من شوق، وندّتْ ضحكة صعبةٌ من فمه: «أنتَ لا تزال هنا؟!». وقالتْ أمّه: «لم يفارقْ غرفتَكَ منذُ خمسة أشهر!».

في اللّيل، يرى صديقه (عمّار) في المَنام، لقد كان قادِرًا على تطوير مادّة (أمّ العبد)، يراه يقوم بتصنيعها، إنّه حاذقٌ، لو أنّه تعلّم على يدَيه، يندم، لقد استعجلَ تجفيفَها، كيفَ يستندُ إلى شَغَفه دون أنْ يستعين به؟! منذُ تلك اللّحظة الفارقة في حياته يوم التصقَ جسدُه بالسّقف تعلّم أنّه فوقَ كلّ ذي علمٍ عليمٌ، لقد استعجلَ فحُرِم. ما زال يحلم، ما زال يرى أنّه سيُصلِحُ خطأه إذا أعطاه الله حياةً جديدةً، وسيجلسُ بين يدَي (عمّار) تلميذًا يتلقّى عن أستاذه حتّى حركاتِ أصابِعه.

لا يكفّ عن الحُلم منذُ أنْ أفاق من غيبوبته، كان يرى الباب المُغلَق، خلفَ الباب سِرّ، وللسّرّ غُموض، وللغموض خيالٌ يذهبُ به

إلى حيث لا أحدَ يرى ما يرى سِواه... كان يَرَى ظِلّه يكبر، ويصعد إلى أعلى بدلاً من أنْ يمتدّ على الأرض، كان يرى الطّائرات تمرّ عبر ظِلّه العالي الّذي يُطاول عنان السّماء، تمرّ الطّائرات الّتي تبدو كحشراتٍ صغيرةٍ من أذنه اليُمنى وتخرج من أذنه اليُسرَى، فلا يشعر إلاّ بطنينِها، وشيءٍ من الوخز الخفيف، ثُمّ صوتُها وهي تبتعدُ مُخلّفةً وراءَها سُحُبًا بيضاءَ، كانت هذه الطّائرات لا تكفّ عن التّحليق فيه، لم تكنْ لترتفع أعلى من هامته، كانتْ دونَها دائِمًا، ها هو سِربٌ جديدٌ من الطّائرات قادمٌ من بعيدٍ، يدخل من عينَيه، ويخرج، ثُمّ يلتفّ فيعود ليدخل في ثنايا شَعره، شَعَرَ بدغدغةٍ في هذا الشَّعر، فنفضَ رأسَه فتساقطت الطّائرات وتقافزتْ على الأرض بين قدمَيه تعوي كأنّها جِراءٌ صغيرة... ثُمّ ها هو سربٌ آخر من الطّائرات، الطّائرة الّتي في المقدّمة تضربُ سُرّته، دغدغتْه، ضَحِك، ثُمّ كركرَ... منذُ أنْ كان في الرّابعة وهو يرى الطّائرات على هذا النّحو، إنّها لُعَبٌ تحاول أنْ تُثير غضبَه أو تُفجّره، ولكنّه كان يشعر بمرور عجلاتها على رقبته فيضحك، وبِوَخز أجنحتها في خاصرته فيُكركر... وباستِثناء أنّها لا تكفّ عن التّحليق في خياله فإنّها لم تكنْ تُسبّب له أيّ إزعاج.

قال له عمّار: «إنّني جائع». كانا طفلَين. أجابَه: «فلْتُطعِمْك أمُّك». ردّ: إنّ أمّي ماتت. هَزّ رأسه وصمت، وسأله عمّار من جديد: «نحن صديقان. أطعِمني». أجابه: «اذهبْ إلى أبيك». «أبي هو الآخَر مات». «أينَ مات؟». «ماتَ على الجبهة». «ماتَ على الجبهة؟ ماذا تعني؟». «إنّهم يُسمّونها كذلك. ولكنّني لا أعرفُ ما تَعني. كلّ ما أعرفه أنّه ماتَ هناك. قالوا إنّ شيئًا كبيرًا كان قادِمًا من طائرةٍ تحلّق في السّماء هبطَ عليه دُفعةً واحدةً، ثُمّ لم يعثروا بعدَ ذلك على أيّ شيءٍ منه». «ماذا تعني؟». «اختفى بعد أنْ أطلقت عليه الطّائرة تلك القذيفة».

«كيفَ يختفي؟ أنتَ تمزح؟». «أنا أيضًا سألتُهم: كيفَ اختفَى أبي، لا بُدّ أنّكم تمزحون!». لكنّهم لاذُوا بالصّمت. «ألم تذهبْ إلى الجبهة لتبحثَ عنه؟». «حاولتُ، لم أكنْ أعرفُ أينَ تكون هذه الجبهة، ولم يدلّني عليها أحد!». «لو أنّكَ خرجتَ تبحث لرّبما وجدتَه». «قالوا لي إنّه اختفى تمامًا». «لا يُمكن للإنسان أنْ يختفي تمامًا... هكذا فجأة... لا بُدّ أنْ تعثر ولو على قِطعةٍ منه؛ هل جرّبْتَ أنْ تبحثَ عن عينَيه؟!».

مرّتْ عشرةُ شهور، ثُمّ سقطَ الكلام. ونامَ الزّمن. فلمّا استيقظَ وجدَ أنّهما صارا أطولَ إصبعًا عمّا كانا عليه، وأنّ الحارة الّتي نام فيها أيّامَ كان طِفلاً قد امتلأتْ بالأطفال الجُدُد!!

(٢)

ياسَمينُ فِلَسطين

لم نشبعْ من خُبزٍ قطّ؛ ولذلك كُنّا نعرفُ قيمته، كُنّا نعرفُ نِعمة الله فيه، وكُنّا نعرفُ أنّنا إذا شبعْنا نسينا، وكانت الحقيقة الوحيدة أنّنا ما دمنا مَنفيّين في أوطاننا فلن يمدّوا لنا أيديهم بكسرةِ خُبزٍ واحدة. وكانت القناعة نصف السّعادة، وبها كُنّا نقطع نصف الطّريق، وكان الله يقطع بنا النّصفَ الآخَر.

«إنّكَ تُصوّب بشكلٍ جيّد». قال لي ذلك أبي. كنتُ صغيرًا، صغيرًا جِدًّا. هل يُمكن أنْ أتذكّر؟! نعم. الأطفال يتذكّرون أكثر من الكِبار، إنّهم لا ينسَون بسهولة. كان ذلك عصر يوم جمعة. أَخَذَنا أبي إلى أحدِ الأحراش. وركَزَ كعب البندقيّة على كتفي، وقال لي: «اثبُتْ. كتفُكَ الصّغير هذا لن يظلّ صغيرًا. من الجيّد أنْ تُعوّده على كعوب البنادق من الآن». ثُمّ اقتربَ منّي وهمسَ في أُذني: «هل ترى الهدف؟». «أراه يا أبي». «هل إصبعكَ على الزّناد؟». «نعم يا أبي». «حدّقْ بعينَي الصّقر. اكتمْ نَفَسَك....» تراجَعَ هو إلى الوراء، فيما تحفّزتُ أنا، ثُمّ صرخَ بصوتٍ عالٍ: «الآنَ أَطْلِقِ الرّصاص». وضغطتُ على الزّناد، سمعتُ صوتَ أزيزٍ حادّ... ثُمّ... فقدتُ الوعي.

بقيتْ كتفي مُتورّمة ثلاثة أسابيع. لم أكنْ أدري أنّ البندقيّة قد قذفتْني بعيدًا وأردتْني أرضًا، وأنّ قوّة ارتِدادها على كتفي الصّغيرة قد جعلتْني أُغادر إلى عالَمٍ آخر. كان عالَمًا من البَياض، لم أرَ فيه شيئًا سوى نورٍ قويّ لكنّه هادِئ يتسلّل من خَلَلِ الأشجار الباسِقة. ظلّ هذا النّور رفيقي في فترات حياتي اللاّحقة كلّها!

حـينَ جلسْـنا في الصّـفّ، كان ذلـك في (عَرّابـة)، كان مقعدنـا المُشـترَك في الصّـفّ الثّـاني الابتِدائـيّ، تذكّرتُـهُ؛ إنّـه ذلـك الولـد ذو الحاجِبَين الكثيفَين والشّـامة الّتي بحجـم حبّة العدس فـوقَ جفنه الأيمـن، الولـد الّـذي طلـبَ منّـي أنْ أُطعمـه لقمـةً واحـدةً مـن السّاندويتشـة الّتـي في يـدي ولم أَقْبـلْ.

حاولـتُ ألاّ أنظـر في وجهـه، كان هـو الآخـر يخفِـضُ رأسَـه وينظـر مـن زاويـة عينِـه اليُسرى بوجـلٍ، لقـد أدركَ أنّ الفجـوة الّتـي صنَعَهـا ذلـك الطّلـبُ بينَنـا لـن تُـردَم بلقـاءٍ قَـدَريّ عـلى مقعـدِ دراسـةٍ لا نـدري بعـدُ أيـنَ يحملنـا... ظلَلْنـا صامِتَـين، أرادَ أنْ يقـول شـيئًا ولكنّـه توقّـف قبـل أنْ ينبِـسَ بحـرفٍ، لقـد كانَ يـدور في أعماقـي مـن الـتّردّد مِثـلُ مـا كان يـدور في أعماقـه، غـيرَ أنّ الخجـل هـو الّـذي حَمَلَنـي عـلى ذلـك لا الوجـل. حرّكـتُ يـدِي باتّجـاه حقيبتـي القماشِـيّة الّتـي خاطَتْهـا أمّـي لي. دَسسـتُ ذراعـي في فراغِهـا. لم تكـنْ تحمـل شـيئًا كثـيرًا؛ دفـترًا لأخـي الأكـبر، كان يسـتخدمه في السّـنة الفائتـة، مَحَـتْ أمّـي حروفـه المكتوبـة بقلـم الرّصـاص، وأعـادتْ تأهيلـه لأكتـبَ فوقَـه مـن جديـدٍ، وقلـمَ رصـاصٍ ذهبَـتْ أختـي بنصـف قَوامـه فيـما مـضى، وبقـي لي النّصـف، كانـتْ أمّـي قـد بَرَتْـه بمِـبراة احتفظـتْ بهـا لتـبري قلمَـين آخرَيـن لبقيّـة إخـوتي قبـل أنْ تودِعـه هنـا، وتُوصينـي بالمحافظـة عليـه. و... ساندويتشـة... أخرجتُهـا كمـن يُخـرِج كنـزًا ثمينًـا، قلّبتُهـا أمـام عينَـيّ الشّـغوفَتَين، ثُـمّ وضعتُهـا عـلى الـدُّرج أمامـي، ودفعتُهـا باتّجـاه (عَـمّار) وأنـا أشـعر بأنّنـي أفقـدُ شـيئًا مـن ذاتي، وقلـتُ: «خُـذْ... كُلْ... جِيعـان؟». نظَـرَ إليهـا أوّلاً بحـذر، ثُـمّ صَعّـدَ نظَـره إليّ ولمعـتْ عيناه، تحرّكـتْ شـفتاه كـما يتحـرّك جناحـا ذُبابَـة، سـمعتُ لتخيّـلي طنَينَهـا، افـترّتْ شَـفَتاه، وأرادَ أنْ يهمـسَ بكلمـةٍ واحـدة، لكـنّ شَـفتَيه سرعـان مـا ذابَتـا ولاذتـا بالصّـمت، ثُـمّ أدار وجهـه إلى الجهـة الأخـرى، سـمعتُ صـوتَ دمـوعٍ صامتـةٍ في عينَيـه، مـرّتْ لَحَظـاتٌ بطيئـة

علينا، قبل أنْ أُزحْزِح جلستي لأقتربَ منه قليلاً، وأضع يدي على كتفِيه، وأقول بصوتٍ خفيضٍ وَدود: «كُلْ.. أنتَ جيعان». كانتْ يدي الّتي هبطتْ على كتفه بحنوّ قد حرّكتْ همومه، انتَفَض من مكانه، زحفَ بجسده مُبتعِدًا عنّي، ونظر إليّ بعينَين لامِعتَين، ودون أنْ يقول شيئًا هوَى على السّاندويتشة، أزال الورق الّذي يُغلّفها، وراحَ يأكلُها بنهم، أكلَ أربعَ لقماتٍ أو خمسًا قبل أنْ يتوقّف وسط اللّقمة الخامسة، ويُبطِّئ من سرعته في المضغ، ويَلُوك الكلمات مع الخُبز: «وأنت؟ جيعان؟». لم أقلْ شيئًا. لا أدري كيفَ تكونُ إجابةُ سؤالٍ كهذا! كُنّا جميعًا جوعَى. الشّوارع، والكلابُ الضّالّة، والحجارةُ القديمة، والنّوافذ المُطفأة، وبيوت الطّين... حتّى القطط الّتي كانتْ تختبِئ في الأزقّة كانتْ جائعة. مَدّها نحوي وهو يهزّ رأسَه: دورُك. وأخذتُها بينَ يدَي، وانقضضتُ عليها آكلُ منها بِنَهَم، وهتف في هذه الغمرة: «لا تأكلْها كلّها... اترك لي شيئًا»، وانتزَعَها من بين يدَيّ، وراحَ يُلقِمها فَمَه، ونظر إلى فمي المُغطّس بالزّيت، ونظرتُ إلى أسنانه الموشومة بالزّعتر، وانفجرْنا في لحظةٍ واحدةٍ بالضّحك، ثُمّ... صِرْنا صديقَين.

وكبُرْنا. كيفَ يكبُر الأطفال؟ لا أحدَ يدري على وجه الدّقّة. بالحبّ؟ ربّما. بالجوع؟ مؤكّد. بالخُبز؟ أنا أشكّ. بالبرد؟ ربّما يهرمون به. بالذّكريات؟ قد. بالنّسيان؟ مُحال. بالخوف؟ مُمكن. لكنّهم على أيّة حالٍ يكبرون، وتكبر معهم أحلامهم.

مَنْ يدري ما سنكون عليه غدًا؟ مَنْ يعرفُ كيفَ يكونُ شكل القَدَر؟ مَنْ يستطيع أنْ يسمع صوتَ الهاتفِ من وراء جدار الغيب: أنتَ لي. هل نحنُ لأقدارنا؟ أنا كنتُ من النّوع الّذي يعرفُ قدَرَه، بل كنتُ من النّوع الّذي يصنعه.

إنّها أيّام المدرسة. لا شيءَ فيها غير عاديّ. صرنا نتقاسَم أنا وعمّار السّاندويتشة، لكنّها كانتْ واحدة. إنْ صنعتْها له أختُه تقاسمْناها، وإنْ صنعتْها أمّي لي فعلْنا الشّيء ذاته. وإنْ لم تصنعْ لنا أيٌّ منها شيئًا شربْنا ماءً. وكان يكفي لِمَنْ جرّب الجوع. وكان الماءُ لأكثر أولاد المدرسة طَعامَهم. ولم نكنْ نتذمّر من الجوع باستثناء أمعائِنا، ولم نكنْ نعرفُ إنْ كان علينا بسبب هذا الجوع القاسي - الّذي لا نعرفُه بل نعيشُه، ولا نسمع عنه بل يعيشُ فينا - أنْ نتذمّر أم لا.

وكان لدينا زيتونٌ كثيرٌ في (عَرابَة)، وفي الصّيف، في العطلة الصّيفية كانت عارِضَتا المرمى شَجرَتَي زيتونٍ عاليتَين. وكُنّا لا نعرفُ إنْ كان الزّيتون الّذي ينتشر على الجوانب، وفي الأطراف يفرح إنْ أحرزَ أحدُنا هدفًا، أو يحزن إذا وقعَ أرضًا. ولم يكنِ الزّيتون ينبتُ في التّراب فحسب، كان ينبتُ بالإضافة إلى ذلك في قلوبنا، لأنّنا كُنّا نتخيّل أنّ شكلَه يُشبِه شكلَ أفئدتنا، ولو أردتُ أنْ أُحدّثكم عن الزّيتون، فلا شكّ في أنّني سأُحدّثكم عنّا، كانت شجرات الزّيتون الّتي في حقلنا الّذي يبعدُ كثيرًا من هنا هي مصدر حياتنا، لا أعني أكثر من أنّه كان طَعامَنا طَوال السّنة، كُنّا ننتظرُ عامًا كامِلاً كي نجني ثَماره في برد الخريف لنشعر بشيءٍ من الدّفء طيلةَ عامٍ بأكمله، قبل أنْ يشحّ في الصّيف لنبتهل إلى الله أنْ يُغيثَه قبل أنْ يُغيثَنا... غير أنّ هاتين الزّيتونتَين اللّتين اتّخذْنا منهما أنا وعمّار عارضَتي الملعب كانَتْ لهما معنا حكايات مختلفة... حينَ نعودُ من المدرسة، نتوجّه إليهما قبل البيت، بعيدتان هما من بيوت الصّفيح والإسمنت والأتربة، يُسنِد عمّار ظهره إلى إحداهما، وأُسند أنا ظهري إلى الأخرى، سمّى عمّار زيتونتَه (ياسمين)، وسمّيتُها (فلسطين)، وكُنّا نُناديهما بتتابعٍ، فإذا بدأ هو سَمِعَتا النّداء منّا: «ياسمين فلسطين»، وإذا بدأتُ أنا انسابَ صوتُنا: «فلسطين ياسمين»، ولا أدري إنْ كان عمّار

لـه حبيبـة اسـمُها (ياسـمين)، فقـد كُنّـا صِغـارًا عـلى الحـبّ، لربّـما هـو اسـم أُختـه الّتـي ترعـاه، أو أمّـه الّتـي ماتـت، أو ابنـة عمّـه، لم أكـنْ أدري... ولكنّ المُرجّـح أنّ خيالَـه هـو الّـذي اخـترع هـذا الاسـم الجميـل. نُسـنِدُ ظهرَينـا، وننظـر إلى الأفـق البعيـد، أسـمع حُزنًـا في صوتـه: «لا أنسـاها». أسـأله: «مـن؟». «أُمّـي». «كيـفَ تتذكّرهـا وأنـتَ لم يكـنْ عمـركَ أكثـر مـن أربـع سـنوات؟». «إنّني أتذكّرها جيّدًا. وأنتَ؟ هـل تنسَـى؟». «أنسـى مـاذا؟». «تنسَـى أُمّـك؟». «مَـنْ ينسَـى أُمّـه؟!».

بقينـا نجلـسُ في ظلّهـما كلّـما عُدْنـا مـن المدرسـة ثـلاث سَـنَواتٍ، دأبْنـا عـلى ذلـك حتّـى في أيّـام المطـر، نتبلّـل؟ ومـاذا في ذلـك؟ لقـد كان البـردُ يغلّـف أضلُعَنـا منـذُ وُلِدْنـا، فـما الجديـد؟ مـاءُ هـذه السّـماء طاهـر. نُلقـي أسـئلتنا الّتـي تشـكّلتْ خـلالَ يـومٍ منـذُ أمسٍ، لكنّنـا نقولهـا ونحـن واقفـان حتّـى لا تتلـف ثيابنـا بالطّـين.

إنّـه يـوم الخميـس، السّـابع عـشر مـن إبريـل عـامَ ١٩٨٦م... كان يومًـا جميـلاً، كان الحقـل مليئًـا بالـورود البهيجـة، ونَسَـمات الهـواء عليلـة، وتُغـاء بعـضِ الشّـياه الرّاعيـة موسـيقى... كان كلّ شيءٍ يبعـثُ عـلى الفرحـة، إلاّ أنّنـا بكَيْنـا بُـكاءً مريـرًا، وعـلا صوتُنـا بالنّحيـب... أمّـا لمـاذا؟ فلـشيءٍ سـيكون لـه مـا بعـده... لقـد مرَرْنـا بـ (ياسـمين فلسـطين)، فوجدْناهـما مُلقَاتَـين عـلى الأرض وقـد اقتُلِعتـا مـن جذورهـما، وأُكِبَّتـا عـلى وجَهَيهـما، كانتـا مُنكفِئَتَـين كأنّهـما جُثّتـا فتاتَـين انتُهِـكَ جسـداهما، وسُـلِبت منهـما الحيـاة... حـينَ وقعـتْ عيوننـا عليهـما ذُهِلْنـا أوّل الأمـر... ثُـمّ صرخَ عـمّار وولـوَل: «مَـنْ فعـل هـذا؟». صرخـتُ بـدوري: «يـا ملاعـين، إنّهـا لنـا... لماذا تفعلـون ذلـك؟!». «مَـنْ فعـل ذلـك؟». «الصّهيانـة... القَتَلـة». رَكَضْنـا نحوهـما وجَثَوْنـا عـلى رُكَبِنـا، واحتضـنَ كلّ واحـدٍ منّـا زيتونَتـه، وبكـى عـمّار أكثـر، لقـد تذكّـر كيـفَ كان يَحضـن أمّـه، وشـعرَ اليـوم كأنّـه يفقـد أمّـه للمـرّة

الثّانية... وأمّا أنا فوقفتُ على رِجلَيّ بتحدّ، وأدرتُ نظري حولي فرأيتُ عددًا كبيرًا من شجرات الزّيتون هاويةً على الأرض، ورفعتُ قبضتي في الهواء، ورحتُ أتوعّد: «سأقتلكم كما قتلتموها أيّها الصّهاينة... سأذبحكم كما ذبحتموها... سأنتقم منكم أيّها المُحتلّون». فيما كان عمّار لا يزال يحتضنُ ياسَمينه.. ثُمّ وقف على رجلَيه ومشى نحوي، وتعانقْنا، وبقينا مُتعانِقَين أكثر من عشر دقائق تسيلُ دموعنا بصمتٍ على خدودنا، وترتجّ أجسامُنا... لم يكنْ لنا من عَزاء... سألني: «ماذا سنفعل بهما؟». رددتُ: «ندفنهما كبطلتَين». «ندفنهما؟». «نعم». «أينَ؟». «هنا، في مكانهما، عليهما ألاّ يُغادِرا هذا التّراب». صمتَ عمّار وخرّ على الأرض أمام ياسمينه، وهتف: «هل ستُسامحاننا؟». «أجل». نظر نحوي وهو على قرفصته تلك: «كلاّ... اسمع». وصمت: «اسمعْ إليهما، إنّهما تقولان: أين كُنتما ونحن نتعرّض للذّبح؟». «كُنّا في المدرسة». «ليسَ عذرًا». «ماذا كُنّا سنفعل؟». «كُنتما تستطيعان الدّفاع عنّا». «لم يكنْ ذلك بأيدينا». «بأيديكم شيءٌ قد يعوّضنا». «....؟» «الثّأر». كانتْ فيهما بقيّة من حياةٍ تنسلّ من خلال الجذور العتيقة الّتي مرّ على وجودها أكثر من ألفَي عام، كان التّراب اللّاصق بهما يتساقطُ عنهما رُوَيدًا رويدًا مثلما تتساقطُ روح الشّهيد قبل أنْ ترتقي إلى الأعالي.

سألني عمّار: «هل يجب علينا أنْ نُقيم لهما جنازة؟!». «جنازة؟». «أليستَا شهيدتَين؟». «بلى. ولكنْ كيفَ يُمكن أنْ نُقيم لهما تلك الجنازة؟». «ربّما شبيهة بتلك الّتي أقاموها لأبي». «أبوكَ تحوّل إلى أشلاء، لم يبقَ له منه شيءٌ». ولكنّهم أقاموا له جنازة». «ربّما. لكنّنا لا نقدر على حملهما، وليسَ لدينا تابوتٌ لهما». «كلّ توابيت الدُّنيا لا تتّسع لهما». «سندفنهما هنا على هيئتَيهما، فقط نُغطّيهما بالزّهور مثل بقيّة الشُّهداء، ونُكفّنهما بالعنبر، والشّذى، ورائحة الأرض».

(٣)

الأبواب

التقينا في الطّريق التّرابيّة، كان مطر اللّيلة الفائتة قد حوّلها إلى طينٍ، كُنّا نغوصُ فيها، ونضعُ حقيبَتَنا المدرسيّة فوقَ رؤوسنا نتّقي مزيدًا منه، قلتُ له وأنا أنظر من تحتها: «كيفَ سنصل في هذا المطر الشّديد إلى المدرسة؟!». ردّ: «مشيًا» وضحك. ضحكتُ بدوري: «لم أُرِدْ منكَ أنْ تجيب. لكنْ هل نعودُ إلى البيت؟». «نحن لم نعدْ إلى البيتِ في الثّلج. هذا مطر». لم يكدْ يُتمّ جملته حتّى انزلقتْ رِجله في الطّين، ووقع على الأرض، ووقعتْ منه حقيبتُه الّتي غطستْ في الوحل هي الأخرى، ونهض، لم يكنْ يدري كيفَ يمسح هذا الطّين عنه، تركَ المطر يفعل ذلك... ضحكتُ بصوتٍ أعلى هذه المرّة: «تريدُ أنْ تمضي إلى المدرسة...؟ هه..؟». «سنمضي، ولن نعود». وضع الحقيبة فوقَ رأسِه من جديدٍ، ومشى بعرجٍ وحذرٍ مُحاولاً ألاّ يسقط: «هَيّا... بنا...». «المدرسة بعيدة، نحتاج إلى نصف ساعةٍ حتّى نصل إليها... هل أنتَ مجنون؟ دَعْنا نَعُدْ إلى البيت». «أنا لن أعود..». كان السّيلُ قد تشكّل، وتدفّق نحوه هذه المرّة، غَطّى هديرُهُ على صوتِه الضّعيف وهو يحاول أنْ يرفعه: «أنا لن أعود... قلتُ لك ذلك.. إذا أردتَ أنْ تعودَ أنت... فعُدْ». خجلتُ، أردتُ أنْ أشتمه، ولكنّ اصطكاكَ أسناني من البرد حال دون ذلك». حاولتُ أنْ أحتضن الحقيبَةَ بين ذراعيّ على بطني من أجل أنْ أستجلبَ الدّفء لكنّها زادَتْني بردًا. مضى أمامي، ومضيتُ خلفَه أتّقي الرّياحَ والمطر، كان يبدو بجسده الضّئيل المُرتجف سفينةً ضخمةً تشقّ عُبابَ الماء متقدّمةً إلى الأمام رغم كلّ شيءٍ، احتميتُ به حتّى وصلْنا إلى المدرسة نِصفَ ميّتَين. واكتشفْنا ونحن نلج من البوّابة إلى الدّاخل أنّ أكثر طُلاّب المدرسة لم يأتِ. قلتُ له:

«أرأيتَ...؟! تبدو المدرسة فارغة... حتّى الحارس ليسَ موجودًا». شَدّني من يدي، ومضى بي إلى الدّاخل. ولجْنا إلى صفّنا، لم يكنْ فيه أحد، جلسْنا على مقعدنا نعصر ثيابنا المُبلّلة، فتحتُ حقيبتي، فوجدتُ كتبي قد ذابَ ورقُها بسبب البلل الشّديد، واختلطت الأوراق بالزّيت والزّعتر. نقّبتُ الورق الّذي انعجن مع الخُبز، وقدّمْتُها لرفيقي: «كُلْ». ردّ: «لم تبدأ الحصص. نأكلها في الفرصة». نظرتُ إليه: «أُريدُ أنْ آكل... ليس هناك حصص ولا فُرصة. كُلْ نحن جوعى». تردّد قبلَ أنْ يقسم العجينةَ إلى نصفَين، ويمدّ لي نصفي، ويهتف: «سأُخبِّئ نصفي إلى الفُرصة».

اعتدْنا بعدَ ذلك على المطر. على الجوع. على الطّريق الّتي أكلتْ من أقدامنا، وانطبعتْ عليها ذكرياتُنا. كان كلّ شيءٍ في تلك الطّريق يعرفنا؛ ذلك أنّنا كُنّا نكلّم كلّ ما فيها. كُنّا نقول للشّجر الهزيل: «صباح الخير». فيردّ بانحِناءةٍ من أغصانه. وكُنّا نهتفُ في الأمّ الّتي تنشرُ غسيلَها على الحِبال أمام البيت: «أينَ ابنُك؟». فتجيبُنا بدمعة، ثُمّ تطلبُ منّا أنْ ننتظرها قليلاً، تدخل البيت وتعود ومعها عروسةُ الزّعتر. وكُنّا نسأل الفتاة الّتي تُمشّطُ شعرَها أمام المرآة: «أينَ حبيبُكِ؟». فتجيبُنا بنظرةٍ ساهمة. وكُنّا نمرّ على العصافير النّائمة على غُصُون الأشجار فنهزّها قائلين: «استيقِظي... استيقِظي لقد بدأ النّهار». وحينَ نعودُ في المساء كُنّا نلمسُ بوّابات الصّفيح، وننقر عليها بأصابعنا أغنيةً اخترعناها معًا: «هذا البابُ الأَوَّلُ بائِسْ... يَحْكِي قِصَّةَ أَرْمَلَةٍ فَقَدَتْ فارِسَها فِي الحَرْبِ فَمَا ثَمّة فارِسْ... هذا البابُ الثّاني يُخفِي قِصّةَ شُهَداءِ القَصْفِ، لَقَدْ كانُوا سِتَّ مَناراتٍ في اللَّيْلِ الدَّامِسْ... ماتَ الخَمْسَةُ بَقِيَ السّادِسْ... احْكِ القِصّةَ يا مَنْ ظَلَّ يَتِيمًا ووَحِيدًا... كَيْفَ يَفُوهُ الآيِسْ؟! هذا البابُ الثّالِثُ... والرَّابِعُ...

والخامِسْ... عُدَّ كما شِئْتَ مِنَ الأَبْوابِ تَجِدْ حُزْنًا، وشُموعًا ذابَتْ، وَرَحِيلاً مِن بَعْدِ رَحِيلٍ... وشهيدًا في الحربِ وراء شهيدٍ... يتلوه شهيدٌ لم يخرجْ بعدُ من الفِكرةِ.. وعلى كَفّيه تَحطُّ نوارِسْ... وَحَكايا تَرْسُمُ خارطةَ الأيّام ووَجْهًا عابِسْ... إلاّ أنَّ البَابَ العاشِرَ كان يُجَبِّئُ فَرَحًا يَتَشَكَّلُ كالوَرْدَةِ في الحَقْلِ اليَابِسْ... قالَ البابُ المُتَفائِلُ: لَنْ نَيْأَسَ... خَلْفَ اللَّيْلِ الفَجْرُ... وَرَاءَ الأَيْكَةِ غَيْمٌ... فَوْقَ الأَرْضِ المَذْبُوحَةِ رَبٌّ حارِسْ... لا لا.... لا لا... لا لا». ونرقُصُ كحَجَلتَين.

في الصّفّ السّابع دخل على الخطّ معنا (سمير)، كان يركضُ في السّاحة دون توقّف. لم نكنْ ندري لماذا يفعل ذلك! كان يدور حول السّاحة ثلاث دوراتٍ أو أربعًا، ثُمّ يتوقّف لبرهةٍ يلتقطَ أنفاسَه اللاّهِثَة، ثُمّ يُتابِع الرّكض حول السّاحة. وقفتُ له في إحدى الدورات، أمامه مباشرةً، أرادَ أنْ يتنحّى عن طريقي، لفّ جذعه حتّى دون أنْ ينظر في وجهي وأراد أنْ يُتابع، فأمسكتُه من ذراعه اليُسرى: «توقّفْ...». حاول التّخلّص من قبضتي، كنتُ أشدّ عليها بقوّة، فلم يستطع، هتفتُ من جديد: «مِمّ تهرب؟». لم يُجب، حاول ثانِيةً أنْ يتملّص، لكنّني كنتُ أقبضُ على ذراعه بقوّة أكبر، صرخ: «اتركْني». «لن أتركك حتّى تقول مِمّ تهرب؟». «أنا لا أهرب من شيءٍ... اتركني». «أنتَ تهرب...». انتفض: «وليكنْ. ما شأنُكَ يا كوز الذُّرة؟». كان رأسي في صِغَري والشَّعر الّذي فوقَه يُشبه كوز الذُّرة بالفِعل. صرختُ بالمقابل: «لن أتركك يا رِجل السِّلْعُوّة». لفّ قبضة يده اليُمنى، ولكمني على وجهي، فرأيتُ نجوم الظّهر كما يقولون، كانتْ ضربةً قاسِيةً لدرجة أنّني أفلتُّ ذراعه اليُسْرى وترنّحتُ، وكدتُ أسقطُ لولا أنّني استعدتُ توازني، وتراجعتُ إلى الوراء خطوتَين، ثُمّ هجمتُ عليه، ورحتُ ألكمه بيدَي، وأرفسُهُ برجلَيّ، وتبادلنا اللّكمات والرّفسات،